المحاضرة الأولى :واقع اللغة و النقد قبل عصر النهضة

1-ماهية النقد:

مصطلح النقد قديم قدم المعنى العام ، الذي يحيل إليه المفهوم، و تعدد المجالات التي ارتبط بها المعنى العام ،فهو تحليل القطع الأدبية و تقدير مالها من قيمة فنية، و لم تأخذ الكلمة هذا المعنى الاصطلاحي منذ العصر العباسي ،أو قبل ذلك فكانت تستخدم بمعنى الذم والاستهجان ، واستخدمها الصيارفة في تمييز الصحيح من الزائف في الدراهم و الدنانير.ومنهم استعارها الباحثون في النصوص الأدبية ليدلوا بها على الملكة التي يستطيعون بها معرفة الجيد من النصوص والردىء والجميل و القبيح و ما تنتجه هذه الملكة في الأدب من ملاحظات و آراء و أحكام مختلفة.

وواضح أن الأدب وجد أولا،ثم يوجد نقده،لسبب بسيط و هو أن النقد يتخذه موضوعا له،ومن هنا ينشأ الفرق بينهما،فالأدب موضوعه الطبيعة و الحياة الإنسانية،و النقد موضوعه الأدب، فهو فن مشتق من غيره، أو متوقف على غيره،إذ لا يوجد بدون أدب يشتق منه قواعده، و يسلط عليه مقاييسه،و يصور فيه رضاه و سخطه.

2-الوضع الثقافي العام قبل عصر النهضة :

إن سوء الأحوال السياسية قبل العصر الحديث في ربوع البلاد العربية – وبالأخص مصر -كان بسبب الفوضى التي صاحبت الحياة الاجتماعية والسياسية أثناء حكم المماليك والباشا التركي ،وقد انعكست هذه الفوضى بشكل واضح على الأدب شعره ونثره . وسبب ذلك أن الحكام لم يكونوا ممن يتذوقون الشعر ولا يشجعون عليه ولذلك انصرف الشعراء إلى أمور أخرى تمكنهم من الرزق. كان الشعراء قلة وكانوا شعراء شعب لا شعراء بلاط أو ديوان ،وانحط الذوق الأدبي بسبب انتشار الألفاظ التركية في ثنايا اللغة العربية ولاسيما العامية... إلا أن اللغة الرسمية في ذلك الوقت كانت التركية، وقد انتشر الكثير من ألفاظها فحرص الشعراء على تجويد ألفاظهم وتنميق عباراتهم حتى أصبح شعرهم عبارة عن حلى لفظية خالية تنعدم فيها القيم الفنية والجمالية .وعلى العموم يمكن القول إن أدب هذه المرحلة قد اتسم بالضعف والتخاذل باستثناء بعض ما كان من النصوص الشعرية لشعراء المدرستين المشهورتين في ذلك الوقت هما المدرسة البكرية والمدرسة العلوية. أما المدرسة البكرية، فهي نسبة إلى أبي بكر الصديق ومن تعلق به في حين أن المدرسة العلوية تنتهي إلى علي بن أبي طالب وأتباعه وكلاهما أكثر من تناول موضوعات التصوف والمديح النبوي والتفاخر بالأنساب وسير السلف .تتمثل الأغراض وموضوعات الأدب عامة والشعر منه بالخصوص –في تلك المرحلة- في تصوير البيئة المصرية وما أصابها من انحطاط وتخلف اجتماعي وفكري جراء انصراف الحكام عن الانشغال بالشعب وبمشاكله ،وبالانغماس في ترف الحياة وملذاتها. وقد استغل بعض الدخلاء هذا الفراغ السياسي الرهيب فراحوا باسم الدين والتصوف يوظفون الخرافات و الأباطيل والسحر لخداع العامة ،ونتج عن هذه

الأوضاع ركود تام للحركة الأدبية زمنا طويلا تجمدت خلاله القرائح الحية وبقي الشرق بعد الحروب الصليبية مغلقا على نفسه يسير في ظلمة دامسة من الجهل والفقر الثقافي وقد أطلق عليها النقاد الفترة المظلمة وتبدأ من سقوط بغداد في غزو هولاكو سنة 1258م كما يتفق جميع الدارسين وتنتهي بدخول نابليون مصر 1798م .استمرت الفترة حوالي ستة قرون ولا شك أنها كانت مظلمة من الناحية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. و أن الشعر العربي تراجع في هذه الفترة المظلمة عما كان عليه سابقا وكان شعر هذه المرحلة يسير في اتجاه الصنعة الفنية إلى حدها الأقصى الذي أوصل إلى الانحطاط.

كما أصيب الأدب العربي على يد العثمانيين الذين دام حكمهم زهاء الأربعة أو خمسة قرون بنكسات عدة سببت له الجمود و التقهقر،ذلك أن العثمانيين في الأساس ما كانوا أهل علم و ثقافة، فشهد الأدب تراجعا حثيث الخطى على مدى الأحقاب المتتابعة حتى انطفأت شعلته وبهت بريقه إلا من وميض خافت ينبعث من حين إلى أخر من بين الظلام الدامس الذي عم الحياة الأدبية بفنونها المختلفة.

وأثناء حكم العثمانيين صارت عاصمة الإسلام القسطنطينية لا القاهرة ،واللغة الرسمية العربية لا التركية ففشا في اللغة الدخيل ،وزاحمتها العامية والتركية في الدواوين ، وذهبت أساليبها من النظم والنثر ، وتمكن الذل من النفوس فخمدت القرائح ونظب معين العلم ، ولم توجه أية رعاية إلى التعليم حتى أغلقت المدارس ، بل هدمت وانتهبت ، وكانت النتيجة أن انطفأت شعلة الحياة العلمية في البلاد وتعطلت الحركة الأدبية ، بل تحجرت وانحرفت اللغة العربية ، بل فسدت ،فكثر فيها التركي والعامي وحادت عن قواعد الإعراب ،وابتعدت عن سلامة التركيب العربي الأصيل ، واطمأنت الكتب في الخزائن .

كما أصبح الأدب في حالة من السقم تقارب الموت ،فكانت تمثله نماذج نثرية وشعرية هزلية ليس وراءها أي صدق إحساس أو فنية تعبير ، بل ليس وراءها حتى تقليد لتلك النماذج الرائعة من أدبنا في عصور الازدهار ،وإنما هي نماذج شاحبة مفتعلة غالبا،تغطي ركاكتها في أكثر الأحيان ألوان من البديع، كثيرا ما تبدو كأكفان ذات ألوان وتطاريز،تلف أجداثا وعظاما نخرة.

وقد كان أغلب النتاج الأدبي لتلك الفترة يدور حول المدائح النبوية والأمور الإخوانية،والمراثي الباردة والمواعظ المباشرة وتسجيل بعض الأحداث في لغة سقيمة .

وهكذا ضرب الجهل على أبصار الشرقيين فعموا وطال عليهم الأمد فغشاهم النعاس وخيم عليهم الظلام ، فلم يستيقظوا إلا بمدافع نابليون على أبواب القاهرة.

المصادر والمراجع المعتمدة:

-شوقي ضيف، النقد .

-قيصر مصطفى ، في الأدب المعاصر.

-أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي.

-أحمد هيكل، تطور الأدب الحديث في مصر.

-عمر الدسوقي ، في الأدب الحديث.